زيـــاد منـى:

وداعـاً أيـها المعلـم الكبيـر

لم تُبدع بعد اللغة التي يمكنها أن تعبر ببلاغة عن فداحة الخسارة التي منينا بها جميعًا برحيل الأب المعلم والعالم والصديق والمربي والمعلّم العلمي والأستاذ، الكبير حقًا، نقولا زيادة.

أيها المعلم، سوف يكتب كثيرون عنك، عن علمك، عن دماثتك، عن عطائك، عن شخصك، عن تدرتك، ولكنني أدرك حدود اللغات جميعها.

كنت، ومعي كل الأصدقاء، الذين تشرفت بالتعرف عليهم في منزلك منذ أن التقينا للمرة الأولى، والذين عرفتهم من كبار القوم، ننتظر الاحتفال معك بمئوية نقولا زيادة، بقرن نقولا زيادة، ولكن...

خسارتنا، نحن، تلاميذك، ومحبيك، وقارئيك، وأصدقائك، المنتشرين في بقاع الدنيا كلها، أكبر من الكلمات واللغات والكتب.

وبرحيلك ثمة خسارات شخصية كثيرة، ومنها ما لحقني أيضًا، لا تعوض، لأسباب لا تحصى. لقد كنتُ حريصًا كل الحرص على زيارتك في كل مرة آتي فيها إلى لبنان الجميل، بأهله وبغاباته وجباله وسهوله ووديانه منذ قدومي قبل سنوات قليلة من منفاي «الطوعي»، إلى مشرقنا المنكوب، بعدو صهيوني مجرم، متسلح بـ«حضارة»، منتشية بانتصارها في الحرب الباردة، أحلت عد نفسها الوريثة الوحيدة للحضارة الإنسانية فأخذت في استباحة العالم ولم تعرف طريقًا للتعريف بنفسها سوى بنثر الدمار والقتل فوق بيوتنا وحدائقنا وأزهارنا ومزارعنا، وفي أجساد أطفالنا وشقيقاتنا وأمهاتنا وآبائنا، وأوطان تضيق بشعوبها، وعقائد جعلت من الحريات والإبداع عدوها الأول والأساس.

لقد كنتُ حريصًا على أخذ رأيك، أيها الراحل الكبير، في تفاصيل عملي، فكنت منارة ولم تبخل لحظة بحكمتك وتجاربك الكبرى، الحياتية والعلمية...

فلمن أذهب الآن؟

وفي أي عقل أبحث عن النصح والإرشاد؟

وفي أي طريق؟.

خسارتي لا تعوض لأنك، أيها الراحل الكبير، كنت حريصًا على تقديمي إلى أصدقائك، الكثر، في هذا اللبنان الجميل، رغم أنف آلة القتل والتدمير الصهيونية، والذين عرفتهم كرامًا صدوقين، تمامًا مثلك سيدي، من كبار القوم.

خسارتي لا تعوض.

لأن معرفتي بك، أيها الراحل الكبير، أثرت حياتي في المجالات جميعها، وكنت في كل جلسة تشرفني بها في منزلك، أتعلم وأتعلم وأتعلم. وفي زيارتي الأخيرة لك في الأسبوع الماضي، كنتَ، أيها المعلم، حريصًا على معرفة أخبار الدار وإصداراتها، مع أنك كنت تعاني ما تعانيه، وطيران العدو يحوم فوق بيروت أم المدائن العربية، يزرع فيها الموت ويحاول ترويضها لتصير عاصمة مثل «شقيقاتها».

اللغات كلها غير كافية للحديث عنك أيها المعلم، يا ابن ناصرة الجليل الفلسطيني وابن لبنان وابن دمشق.

كثر عرفوك من ما لا يحصى من مؤلفاتك ومقالاتك ومحاضراتك وأحاديثك العذبة. كثر تعلموا على يدك ومنك. كثر قرأوا كتاباتك وتمنوا لو التقوك ولامسوا يدك. كثر سيكتبون، من أعماق قلبهم، عن إبداعاتك العلمية التي لا حصر لها، لكن قلة محظوظة ممن عرفوك عالمًا، تمتعتُ بمعرفتك شخصيًا.

الكتب كلها لا تكفي للحديث عنك شخصًا كبيرًا وودودًا عذب الحديث والمجلس، لكن مناسبة واحدة أذكرها، تحمل معاني كبيرة تقول الكثير الكثير عن مكانتك في قلوب الناس: عالمًا وإنسانًا وودودًا. فعندما شرفتنا بإصدار آخر كتبك، قررت كثر من الصحف تجاهله، كيدًا بالدار الوليدة، ولكن عندما ظهرتَ في برنامج تلفزيوني، ومع أن صاحبة البرنامج تجاهلت الكتاب و«الناشر السوري»، أصررت أنت على ذكره وذكرت الدار الناشرة. المشاهدين، الذين شاهدوك واستمعوا إليك، عالمًا كبيرًا، وعرفوك في ذلك اللقاء إنسانًا عظيمًا رؤوفًا محببًا، أرادوا الاقتراب منك أكثر فلاحقوا الكتاب الجديد ونفذت النسخ كلها في أيام قليلة. لقد شاهدوك واستمعوا إليك فأدركوا أنه لا بد لهم من ملامستك، عالمًا كبيرًا وإنسانًا عظيمًا.

الوداع أيها المعلم أيها الإنسان الكبير، وخسارتنا، أيتها الأمة، لو تعرفون، كبيرة.